

أسرة الدمشقي الطبية

من زمن الخليفة معاوية الأموي حتى المعتصم العباسي

(٦٦١ - ٨٤٠ م)

د. ساي خلف حمارنة*

مقدمة :

بدأت النهضة الطبية في صدر الاسلام متمثلة ، في العصر النبوي ، برواد نظير الحارث بن كلدة الثقفي من أهل الطائف ، الذي تعلم الطب في جند يسابور بفارس ، ثم عاد ليمارس المهنة في وطنه ، وعرف بأنه « طبيب العرب » . أما ابن اثال ، فكان طبيباً متقدماً في علمه ومن الأطباء المتميزين في دمشق ، وقد اصطفاه الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤٠ - ٦١ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) لنفسه ، فأحسن اليه كثيراً لاعتقاده بحسن معالجته الصحية وقيامه على العناية به ليل نهار ، وكان طبيباً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها وتأثيرها في صحة الانسان . أما ثياذوق ، فكان طبيباً فاضلاً ، وكانت له نواذر وعبر حكيمية في صناعة الطب والمعالجة ، وقد جعله الحجاج بن يوسف الثقفي طبيبه الخاص ، يعتمد عليه ويثق بمداوئته ، ويجزل له العطاء ، وكان ذلك في خلافة عبدالملك بن مروان (٦٦ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) (١) .

وأخيراً نذكر عبدالملك بن أبجر الكناني ، وكان طبيباً ماهراً ، تولى مهنة التدريس الطبي في الاسكندرية ، وأسلم على يد عمر بن عبدالعزيز ، الذي كان أميراً والياً على مصر زمن الأمويين ، ولما فاضت اليه الخلافة ، انتقل معه الى دمشق ، فكان الطبيب الخاص للخليفة (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠ م) (٢) .

(*) ا. د. في الطب الاسلامي بالمعهد الدولي في الفكر وانحاضرة الاسلامية في ماليزيا ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

أبو الحكم الدمشقي :

وفي هذه الآونة ظهر الطبيب : « أبو الحكم الدمشقي » ، مؤسس هذه الأسرة النبيلة ، وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية فسُجلت له في زمانه أعمال مذكورة فريدة ومعالجات ناجحة ، شَهِدَ له بها بعض المؤرخين . وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان يستطبّه ، كزميله ابن أثال السابق ذكره . وكان عارفاً بأنواع العقاقير والوصفات والمهارات الطبية بممارسات صائبة لنفع مرضاه وشفائهم بكل فطنة وحذق وهو لما يزل في ريعان شبابه (٢) .

وفي عام ٥١ هـ (٦٨١ م) ولي الحج الأمير يزيد بن معاوية ، وتوجه معه - متطبياً له - أبو الحكم ، مما يوحي بأنه كان أشهر الممارسين للمهنة في العاصمة الأموية آنذاك ، وكان الموسم بكل مراسمه ونتائجه ناجحاً ومباركاً وميموناً (٤) .

ويبدو أن علاقة أبي الحكم بكل من الخليفين ، معاوية وابنه يزيد (٤٠ - ٦٤ هـ / ٦٦١ - ٦٨٣ م) ، كانت على ما يرام . فالطبيب كان مبرزاً في فنه مخلصاً في عمله موفقاً في النصيح الطبي والعناية ، والقصر يغدق عليه العطايا والنعم . الا أن ذلك كله تغير منذ انتقلت الخلافة الى بني مروان . وقد ظل أبو الحكم طبيباً للقصر ، الا أن الخليفة عبد الملك بن مروان ، السابق ذكره ، لم يكن يستترشد - اذا ما ألمّ به مرض واحتاج الى معالجة - برأي طبيبه الواسع الخبرة والمهارة ، بل كان يلجأ الى أطباء آخرين في صحبته . ولما أصيب في عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م بوعكة عسيرة مع حمّى ، رفض مشورة أبي الحكم وتقبّل نصحاً من آخرين ، وكانت نتيجة التشخيص والمعالجة خاطئة مما أدى الى وفاة الخليفة في غضون ثلاثة أيام (٥) .

وبويع الوليد بدمشق في اليوم الذي توفي فيه أبوه عبد الملك في منتصف جمادى الآخرة عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، وكان من مآثره أنه بنى المسجد الجامع بدمشق ، ومسجد الرسول بالمدينة المنورة ، كما أسس « ملجأ » لايواء المرضى وذوي العاهات والمقعدين والمعوزين (٦) .

واستمرّ أبو الحكم الدمشقي في ممارسة المهنة بالعاصمة الأموية ، حتى
أوشكت دولة الأمويين على السقوط . وقد عُمّر طويلاً ، ما يقرب من مائة
عام (من حوالي ٢٧ - ١٢٧ هـ / ٦٤٦ - ٧٤٥ م ، مائة سنة هجرية ونيّف) (١) .

الحكم الدمشقي :

خلف الأب ابنه الحكم (أو كما تسميه المصادر التاريخية : حكم
الدمشقي) ، ليأخذ مكان أبيه . ويلاحظ أن الابن ظهر طبيباً والأب في سنّ
الشيخوخة ، وذلك ، في رأينا ، امّا لأن الأب تزوج متأخراً ، أو - وهو
الأرجح - لأن الابن وُلِدَ لأبيه من زوجة ثانية بعد وفاة زوجته الأولى والتي
- كما يبدو - لم تنجب له ذكراً يرثه ، وأن حكم هو الابن الوحيد له !

وكانت شهرة الحكم (الابن) في آخر الدولة الأموية وصدر الدولة
العباسية . وقد تزوج مبكراً ، وولِدَ له ابن أسماه « عيسى » تيمناً وعُرف
« بالحفيد » ، كما سيأتي بيانه .

درس الحكم الطب على أبيه مع تلامذة آخرين ، ولحق بأبيه في معرفة
العقاقير وإتقان التدابير الصحية ومهارات الأعمال والحيل الطبية والوصفات
الصيدلانية . ولد مائة خلّقه ، وحذّته في صناعة الطب والعمل باليد (الجراحة) ،
ذاع صيته وتميز ذكره . وبلغ من العمر أكثر مما بلغ أبوه ، ومن المؤسف أن
الأب والابن كليهما - مع ممارستهما المهنة طويلاً - لم يتركا لنا أثراً خطيّة
معروفة !

ولشهرة الحكم أيضاً ، اجتمع إليه عدد ليس بقليل من طلبة الطب ،
يأخذون عنه الممارسة العملية ويتمرنون على أعمالها اليدوية الجراحية بأنواعها
والمعالجات - كان من بينهم ابنه عيسى - وكانوا نواة ممارسي المهنة في بلاد
الشام آنذاك (٢) .

وتوفي الحكم حين كان والي البلاد الشامية « عبدالله بن طاهر بن الحسين
الخراساني » عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م . وحدث أن حضر جنازته ودفنه بدمشق عدد
كبير من الوجهاء وعلية القوم وعامة الناس مودّعين جثمانه لشواه الأخير ،
وكان بينهم أيوب بن الحكم البصري طبيب الوالي الخاص .

وكان الوالي قد استغرب غياب طبيبه الحكم وقت الغذاء ذلك اليوم ،
 وحين سئل عن سبب غياب الطبيب ، أخبر بوفاة الحكم ، وأجاب مضيفاً :
 « لا يعرف أحد بلغ من السن ما بلغ ، » لم يتغير عقله ، ولم ينقص علمه » .
 فسأل (الوالي) عبد الله عن سنه فقال ، إنه عمّر مائة سنة وخمس سنين
 (هجرية) ، فقال عبد الله : عاش الحكم نصف التاريخ ! » . فقد حافظ على
 إشراقه وجهه ورونق منظره ورجاحة ذهنه . وقد عاصر من الخلفاء : هشام
 الأموي حتى المأمون العباسي (من حوالي ١٠٥ - ٢١٠ هـ / ٧٢٣ -
 ٨٢٥ م) (٩) .

ثم إن القاضي أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم ، من ذرية سعد بن حبة
 الأنصاري (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م) وهو صديق الامام أبي حنيفة (٨٠-١٥٠ هـ / ٦٩٩
 - ٧٦٧ م) ، قال : حدثني عيسى بن الحكم :

« ركبنا مع أبي الحكم ، في مدينة دمشق ، فاجتازنا بعانوت جحّام قد وقف عليه
 بشرٌ كثير ، فلما بصُر بنا بعض الجماعة قالوا : أفرجوا ، هذا الحكم المتطبّب وعيسى
 ابنه ! فلمّا أفرج القوم ، إذا برجل قد فصده العجّام في العرق الباسليق (في
 الذراع) فصداً واسعاً ٠٠٠ أصاب الشريان ، ولم يكن عند العجّام حيلة في قطع الدم ! » ،
 والرجل مطروح على الأرض . فعالجه الحكم أولاً بوضع نصف قشرة من الفستق ،
 وثانية لفّ المكان بقماش كتّان لثاماً جيداً وضمّده ، ثم أخذه الى حافة النهر ، ووضع
 ذراع المصاب تحت الماء البارد مدةً طويلة بمساعدة تلاميذه . واستمرت المعالجة
 سبعة أيام بعد كشف الموضع ، حتى تمام الشفاء (١٠) .

الحفيد عيسى بن الحكم :

هو أبو الحسن عيسى (مسيح) بن الحكم (أو حكم) الدمشقي .
 أول من ذكره من المؤرخين أبو الفرج محمد بن النديم في الفهرست (أكمله
 عام ٣٧٨ هـ / ٩٨٧ م) ، في جملة واحدة ؛ وكذلك القاضي صاعد
 الطليطلي الأندلسي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٠٠ م) في سطر واحد . وعرفه تعريفاً
 أكثر دقة ووضوحاً كل من القاضي جمال الدين القفطي (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) ،
 والطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة (ت عام ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م) (١١) .
 ومن خلال هذه المراجع وأخرى غيرها تعرفنا جوانب من سيرة حياة أبي

الحسن عيسى وبعض أعماله وفضله ، فنقول : هو الأخير من هذه الأسرة العريقة ، وثلاثتهم روّاد في ممارسة المهنة وفي رفع مستواها .

ومثل سلفيه ولد عيسى بدمشق ، وكان ذلك في أواخر عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وأبوه الحكم لا يزال في ريعان شبابه ، وهو الذي تولى تعليم ولده مهنة الطب - كما أسلفنا - مع طلبة آخرين كانوا يتمرنون على يديه . وتميز عيسى في التعلم وتفوق على أترابه ، وصار الحفيد مع الأيام أكثر شهرة من أبيه وجده ، وهو الوحيد الذي خلف لنا آثاراً خطية ومعروفة في أصول العلوم الطبية وقوانينها ومناهج المعالجات والتاريخ الطبي (١٢) .

وكان أبو الحسن هو الأول في الأسرة أيضاً، الذي تغرّب عن مسقط رأسه، ليزداد خبرة ، ولكي يقوم بخدمات مهنية في العاصمة العباسية . والأرجح أنه وصل إلى بغداد في أواخر خلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٨ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) ، واستقبل في القصر بالترحاب ، وكذلك خاصة في بداية عهد الرشيد (١٦٩ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) الذي أكرم وفادته وأثنى على عنايته الصحية وحسن رعايته لمرضاه .

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه بطريقة ما : فكما أن الأمير يزيد بن معاوية الأموي ، حج مطلع عام ٥١ هـ / ٦٧١ م ، مُرسلاً نيابة عن والده أمير المؤمنين ، وكان طبيبه الخاص طوال موسم الحج المبارك أبا الحكم الدمشقي ، كذلك كان موسم الحج في مطلع خلافة هارون الرشيد عام ١٧١ هـ / ٧٨٧ م ، أي بعد مرور مائة وعشرين سنة هجرية بالتتابع ، وفي ذلك الحين كانت للخليفة انشغالات ومسؤوليات في تدبير الدولة قاصيها ودانيها ، لم تسمح له بأداء الفريضة ذلك العام ، فكان أن أقام الحج في ولايته ذلك العام أبو محمد عبد الصمد بن علي الهاشمي (ت ١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ، وهو أخو محمد بن علي (والد أبي العباس السفاح وأخيه أبي جعفر المنصور ، مؤسسي الدولة العباسية) . أما طبيبه في موسم الحج فكان أبو الحسن عيسى بن الحكم الدمشقي صديقه ، وكان قد حضر من عاصمة الأمويين السابقة إلى العاصمة العباسية آنذاك ، وكان هذا من حُسن الطالع (١٣) .

وَعُوداً لِلْحَدِيثِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الدَّمَشْقِيِّ ، فَانَنَا نَذْكُرُ أَنَّهُ ، مَعَ تَفَانِيهِ فِي عَمَلِهِ ، وَجَدَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ الْحَاكِمَةِ مَنْ كَانُوا لَهُ مُنْتَقِدِينَ وَغَيْرِ سَامِعِينَ لِنَصَائِحِهِ وَلَا مُقَدِّرِينَ لَعِلْمِهِ .

ذَكَرَ يَوْسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، مَوْلَى إِبْرَاهِيمَ ابْنِ الْخَلِيفَةِ الْمُهَدِيِّ ، قَالَ :

« أَصَابَ غَضَضٌ ، أُمَ حَمْدُونَةَ أُمَ وَلَدِ الرَّشِيدِ ، وَجَعُ الْقَوْلُجِ . فَغَضِرَ لِمُعَالَجَتِهَا الطَّبِيبُ عَيْسَى الدَّمَشْقِيُّ ، وَلَكِنَّا عَوِضًا عَنْ سَمَاعِ نَصِيحِهِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِمُعَالَجَتِهِ ، نَهَبْتُ لَاسْتِشَارَةِ الْمُتَجَمِّينَ وَالْأَصْفَاءِ لِأَرَأَيْهِمْ ، رَافِضَةً حَسَنَ مَشُورَتِهِ وَسَعَةَ خَبْرَتِهِ ! » . وَكَانَتْ التَّنِيجَةُ . وَفَاتَهَا لِسُوءِ مُعَالَجَةِ مَوْاسِيهَا الْمُتَجَمِّينَ . وَبَعْدَ أَيَّامٍ تَكَرَّرَ ذَلِكَ مَعَ ابْنَتِهَا الَّتِي تُوْفِيَتْ بِنَفْسِ الدَّاءِ وَلَعَدَمِ الْاسْتِشْرَافِ بِالْمُعَالَجَةِ النَّاجِعَةِ (١٤) .

وَفِي هَذِهِ الْأَوْتَةِ ، أَصَابَتْ الرَّشِيدَ صَعْبَةٌ ، لَمْ تَنْجَحْ مَعَهَا حِيلُ الْأَطْبَاءِ . فَأَوْصَى الْخَلِيفَةُ بِاحْضَارِ طَبِيبٍ هِنْدِيٍّ اسْمُهُ ، مُحَرِّفًا : « اْمَغِيثُ » (فَعُرِفَ بِالْمَغِيثِ الْهِنْدِيِّ) ، الَّذِي عَالَجَهُ بِأَدْوِيَةِ نَبَاتِيَّةٍ وَعَقَاقِيرِ هِنْدِيَّةٍ ، فَشَفِيَ الْخَلِيفَةُ بِهَا . وَكَانَ الدَّمَشْقِيُّ مِنْ جُمْلَةِ الْأَطْبَاءِ ، الَّذِينَ كَانُوا فِي الْقَصْرِ وَشَاهَدُوا التَّدْبِيرَ وَأَسْلُوبَ الْعِلَاجِ . فَمَا كَانَ الدَّمَشْقِيُّ إِلَّا أَنْ طَلَبَ مِنَ الطَّبِيبِ الْهِنْدِيِّ مُرَافَقَتَهُ أَنْ يَبْلُغَ الْهِنْدَ لِيَزِدَّادَ عِلْمًا وَخَبْرَةً فِي ذَلِكَ ، فَسَمَحَ لَهُ ، فَقَضَى هُنَاكَ حَوَالِي ثَلَاثَ سَنِينَ ، تَعَلَّمَ فِيهَا أَدْوِيَةَ وَمُرَكِّبَاتٍ هِنْدِيَّةٍ نَافِعَةً وَطُرُقَ صَنْعِهَا وَاعْدَادَهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ لِيُطَبِّقَ بَعْضَ مَا تَعَلَّمَ مِنْ مَهَارَاتٍ مُجَرَّبَةٍ (١٥) .

وَبَعْدَ وَفَاةِ الرَّشِيدِ ، اسْتَمَرَّ الدَّمَشْقِيُّ طَبِيبًا فِي بِلَاطِ الْأَمِينِ ، وَكَذَلِكَ فِي مَطْلَعِ خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ ١٩٣ - ٢١٨ هـ . ٨٠٩ - ٨٣٣ م وَهَنَّاكَ نَصُوصٌ تَدُلُّ عَلَى اجْتِمَاعِ الدَّمَشْقِيِّ بَعْدَ مِنْ نَطَاسِيِّي الْأَطْبَاءِ فِي بِلَاطِ الْمَأْمُونِ وَبِحَضُورِهِ ، مِنْ أَشْهُرِهِمْ : جَبْرِيلُ بْنُ بَخْتِيشُوعَ (ت ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) ، وَزَكَرِيَا الطَّيْفُورِيُّ ، وَيَحْيَى بْنُ مَاسُويَةَ ، وَيَعْقُوبُ صَاحِبُ الْبِيْمَارِسْتَانِ بِالْعَاصِمَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَسَهْلُ الْكُوسِجِ الْخُوزِيُّ وَأَصْلُهُ مِنَ الْأَهْوَازِ . . . وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ مَنَاقِشَاتٌ طَبِيبِيَّةٌ وَمُدَاوَلَاتٌ وَمَحَاوِرَاتٌ حَوْلَ الطَّرِيقِ وَالْأَسَالِيبِ الْعِلَاجِيَّةِ الْمُفِيدَةِ ، كَعَادَتِهِمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ ذَلِكَ ، عَادَ الدَّمَشْقِيُّ إِلَى مَسْقَطِ رَأْسِهِ دَمَشَقَ (١٦) .

ويواصل أبو الحسن عيسى الدمشقي ممارسته للمهنة أكثر إتقاناً بما كسبه من خبرات واسعة . يذكر لنا يوسف بن ابراهيم ، السابق ذكره ، ما جرى للدمشقي في آخر أيامه في حادث مثير للتساؤل والجدل ، قال :

« نزلت على عيسى بن الحكم في منزله بدمشق [عام ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م] ، وكانت بي نزلة صعبة [ربما التهاب بالاعضية في الممرات الهوائية في الرأس أو الحنجرة ، أو حسب التشخيص نزلة وافدة ، أو من التهابات معدية] ، فكان يغذوني أشهى الأطعمة ويسقيني الماء بالثلج ، فكنت أنكر عليه ذلك وأعلمه أن تلك الأغذية مضرّة بالنزلة ، فيعتدل عليّ بالهواء ويقول : أنا أعلم بهواء بلدي منك ، [وأنّ هذه الأشياء المضرّة بالعراق هي نافعة بالشام] . فكنت أتناول ما يغذوني به .

« فلما انطلقت راجعاً وقد خرج مثنيّاً لي ، قال : أعددت لك طعاماً . تحمله معك [في الطريق] مخالفاً للأطعمة التي كنت تأكلها في منزلي ، وأمرك أن لا تشرب الماء المثلج . فلمتنه على ما فعل فيما غذاني به ، فقال : انه لا يحسن بالعقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله ! » .

ثمّ أوصاه أن لا يذوق القديد من اللحم [المقطّع والمملّح مجفّف] . بالشمس والهواء [فانه ضار] ، وأن لا يغسل يديه ورجليه عند الخروج من الحُثام الا بالماء البارد جداً ، فذلك نافع حقاً .

ثم ان أبا الحسن عيسى الدمشقي ، بعد هذه الزيارة بعدة أشهر ، توفي ، وانضم الى قومه شيخاً وشبعان أيام ، كأبيه وجده (١٧) .

مآثر الدمشقي الخطية :

كانت أهم مآثر عيسى الدمشقي كُنْأَشَه المشهور (أي : كتابه في مفردات الأدوية ومركبات الوصفات العلاجية ، وهو بمثابة دستور للعقاقير ومرجع للأصول الطبية وطرق اعدادها والتعريف بها وبيان أسلوب صرفها للمرضى) .

وقد حمل هذا الكُنْأَش ثلاثة عناوين :

الرسالة الكافية ، لأنها رسالة كانت كافية في صناعة الطب يُستغنى بها عن الكتب الأخرى ، اذ هي وافية بمحتوياتها شاملة بمعناها وفحواها ؛



والياقوتة ، لمآنتها العلمية وقيمتها الطبية الجوهرية بصفتها كأنفس الجواهر ؛

وسُميت كذلك **الرسالة الهارونية**، إذ هي مهداة من مؤلفها الى نصيره الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، اعترافاً بفضله في احياء العلوم والمعارف .

وهو كتاب يشتمل على أبواب هامة تلقي الضوء على جوانب من سيرة حياة مؤلفه ، وتتضمن حقائق وتعريفات شتى حول تطور صناعة الطب طوال عمره المديد (١٨) .

اننا ، بعد أن فحصنا خمس نسخ خطية من **الرسالة الهارونية** في مكتبات عالمية ، ودرسناها بتمعن ، تبيننا فيها تقدماً وتميّزاً ، ليس فقط في مجال العلوم الطبية والحياتية فحسب ، بل أيضاً في مجال التاريخ الطبي، والتقنيات المساندة لهذه العلوم كلها ، في هذه الحقبة من الزمن . فتقييمنا لها يرجع بنا الى حوالي ثلاثة عقود من السنين من مراحل الابداع الفكري بالعربية ، كانت قبلاً مجهولة أو غير واضحة المعالم حتى يوم الناس هذا .

فهذه المعلومات والمفاهيم الايجابية ، تحمل معها كشافاً حضارياً وتفاعلات هامة ، تتطلب تقييماً جديداً وحديثاً مستنبطاً في ظروف مميزة . كل هذا أصبح ممكناً في ضوء التقنيات والخبرات المشروحة في **الرسالة الهارونية** بمستواها العلمي المستقى من المعالجات الدوائية والممارسة المهنية سريراً ووقائياً ، كما تمثل قفزات الى الأمام في الكيمياء الطبية ، والتنجيم ، وعلوم الأحياء ، والتشريح المقارن ، وموضوع البيئة ، والجغرافية المرضية والمناخية ، والعقاقير البسيطة والمركبة، والمستحضرات الصيدلانية ، وعلوم الاسكان ، والتاريخ الطبيعى عاماً ، والمصطلحات اللغوية ، والتدبيرات الغذائية ، وفي حفظ الصحة والشفاء من الأمراض (١٩) .

ومن بين الأطباء النابهين الذين فطنوا لأهمية **الرسالة الهارونية** ، بالاعتباس من محتوياتها ومجرباتها والتقنية المفسرة فيها ، نذكر :

الطبيب اللوذعي أبا بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) ،
في كتابيه : **الحاوي الكبير والمنصوري في الطب** ، في شرحه لعلاج الربو (داء
نوبي تضيق فيه شعيبات الرئة ويعسر التنفس) ، والشوصة (أو ذات الجنب
أو البرسام) ، ورطوبة المعدة وانقلابها ، والفُواق ، واضطراب الأمعاء ،
وخفقان القلب ، واليرقان ، والأدوية المدرة للّبن ، وفوائد اللبن الرائب
ومَغْس (مغص) المرارة ، ونفخ البطن ، واختناق الرحم وميلانه ، وقرحة
المثانة ، ووجع الظهر ، والبواسير ، والأدوية المفتتة للحصى .

ونذكر كذلك الطبيب علي بن العباس [بن] المجوسي (ت ٣٨٤ هـ /
٩٩٤ م) ، الذي أشار الى **الهارونية** وأهمية مؤلفها ، وأبا القاسم الزهراوي
الأندلسي (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م) في اقتباسات عديدة في كتابه **التصريف لمن
عجز عن التأليف** ، وأبا الريحان البيروني (ت ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م) في كتابه
الصيدنة في الطب ، في ذكر مفردات طبية متعددة منها : أطفار الطيب ،
واللفاح ، والخردل ، وفلفل الماء ، وخصي الثعلب ، وخانق الذئب ،
والمازريون (نبات زيتون الأرض) (١٢٠) .

وقبل نشر **الرسالة الهارونية** (حوالي ١٩١ هـ / ٨٠٨ م) وبعدها ،
هناك ثلاثة عقود من السنين ، وقد ملأت فراغ هذه الأعوام نهضة طبية ممهدة
لظهور بني بختيشوع والطيفوري وعيسى أبي قریش ، ويحيى بن ماسويه ،
والطبري ، ومعاصريهم . وتعتبر رسالة الدمشقي مركز الثقل فيها بانطلاقات
حضارية رفيعة وكشف متميز وعبقورية علمية فذة ، فصارت تمهيداً موفقاً لما
تبعها من حضارة طبية مزدهرة في النُقول والترجمات المفيدة والهامة من اللغات
الهندية والفارسية والسريانية وأهمها الاغريقية ، الى لغة الضاد ، لغة القرآن
الكریم ، بجانب الخبرات والتقنيات المتوافرة بين سكان منطقة الهلال
الخصيب والبلاد المصرية ، أضف الى ذلك التصانيف الأصيلة النافعة من
نطاسيّي الأطباء ومشاهير الكتاب العلماء ، كحنين بن أسحق العبادي
ومدرسته ، وثابت بن قُرّة ، وغيرهما .

وتعتبر **الرسالة الهارونية** فريدة في عصرنا والأولي من نوعها في
العربية بمعناها الدقيق والشامل ، وفي أصالتها واستقلاليتها وطرافة أبوابها .

وهي تقع في مقاليتين ، أو جزأين متعادلين ، يشمل أولهما مواضيع أساسية : في التعريف بالقوانين الطبية وتحديد مفرداتها واصطلاحاتها ، وتبيين فلسفة المهنة ، والعلاقة بين صحة المجتمع والرعاية البيئية ، والتشريح المقارن ، والتاريخ الطبيعى ، والأغذية النافعة لدوام الصحة وحفظ سلامة الانسان وشفاء أسقامه .

أما الجزء الثاني فينتهي بمنافع المستحضرات الدوائية والتراكيب العلاجية المجربة ، والأقرباذين (وهودستور المفردات في العقاقير البسيطة والمركبة وأصول صنعها وطرق صرفها للنفع المرضى) .

أما التأثيرات في الطب اليوناني من جهة ، والطب الهندي من جهة أخرى ، فجليّ ونافع .

وقد وفى المؤلف الموضوع حقه ، بالاجابة عما كان يشغل أفكار ممارسي الطب، مما اختبره شخصياً وما أفاده من أبيه وجده (اللذين كانا يُلمّان بطرف من التراث الطبي الاغريقي) ، وكذلك مما وقف عليه من أسرار المهنة والمعالجات الدوائية الناجعة في أثناء تنقلاته ومن تجاربه العديدة وقراءاته لكتب المؤلفين القدماء ، وما نقله عن الثقات من أهل العلم السديد والخلق القويم وقد قدّم هذا كله للقارئ النجيب الذي ينشد الحقيقة ويسعى الى المعرفة الايجابية^(٢١) .

في مقدمة الرسالة الهارونية قال الشيخ الفاضل والطبيب الماهر أبو الحسن عيسى الدمشقي :

« الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، خالق جميع المصنوعات ، ومنشئ أجسام العالم من تراب وماء وهواء ونار ، ومنسخر الأفلak الجاريات ، وكل ذلك بقدرته وجريته على ارادته وسابق علمه : فلا من نفع أو ضرر ، أو خير أو شر ، أو صفة أو سقم ، أو فرح أو ترح ، الا وقد سبق علمه به .
أما بعد :

« لما رأيت أن غرض وحرص مولاي أمير المؤمنين هارون الرشيد المزيّد في احياء العلوم وما تصلّح به أجساد المؤمنين ، تأملت حينذاك ما جاء في الأثر في الحديث الشريف : « العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان » ، فعلم الأديان للآخرة وعلم الأبدان

للدنيا والآخرة ، فتيقنت من ذلك بانصحة الجسم يتقوى بها المرء على ما كلفه
الباري سبحانه وتعالى من خدمته ومعرفته عبادته ، وعلمت أن السقم والأمراض مميتة
للغلب ، مهينة للجسم ، مشغلة للنفس .

« ثم رأيت من سبقنا الى هذه الصناعة من المتقدمين ومن أدركتهم ، قد صنفوا كتباً
كثيرة في كل فن من فنون الطب والأدوية ، [أضف] الى ما كتبناه ، فاستخرجت منها
هذه الرسالة واستخلصتها من جميع كتب الأوائيل ، وأوجزتها من غير تطويل ،
واخترت من كل فن لبابه ، ومن كل قول صوابه » .

وقد رسمت في هذه الرسالة معرفة الطبائع وأقسامها ومواضعها في الجسد ،
وما تتقهر به كل طبيعة من الأدوية ، وجملة الفراسة ، وجواهر الأحجار ، وخواص
الحيوان والنبات والمعادن ، ومعرفة الآفات والأمراض ، وكيفية صناعة العقاقير المعول
عليها » اهـ .

وفي تنقل المؤلف من باب الى باب ومن موضوع الى موضوع ، كان كمن
وجد جوهراً منشوراً فنظم منه سلكاً في عقد ثمين يزين به عنق من يحب (٢٢) .

وحدة العالمين ، الأصغر والأكبر :

يستهل أبو الحسين الدمشقي الحديث في حالة الانسان ، العالم الأصغر ،
بخاصتين متميزتين عن سائر المخلوقات : النطق والعقل . ويوجب المقارنة بعقله
بين الخالق تعالى والمخلوق ، مفرقاً بذلك في الزمان والمكان .

ويقول في جوهرى العقل :

١ - جوهر روحاني غير جرمي ، لا يرتبط بالحواس والأبعاد ؛

٢ - وجوهر جرمي جسماني بأبعاده الثلاثة : الطول والعرض
والعمق ، ويتكون من العناصر (الأركان) الأربعة ، وهي اما أن تكون من الجوامد ،
ما لا ينمو ولا حياة له كالمعادن والأحجار الكريمة والأفلاك . أما الحواس ذاتها
فهي : السمع والبصر والشم والذوق (المجسة) واللمس والشمهوه .

ويشير المؤلف الى مشاكلة الحيوان لبطن الانسان في حركته وسكونه
ومشيمته وقيامه ، وطعامه وشرابه ويقظته ، والأخلاق والطبائع . فمثلاً في
الأسد نجد القوة والشمجاعة ، وفي الثعلب المكر والخداع .

وأوضح أن في بدن الانسان هناك سبعة أعضاء : المخ (أو الدماغ في الرأس) ، والعظام ، والعروق ، والأعضاء كالعينين والأذنين والأنف والفم والحنجرة ، ثم اللحم ، والجلد ، والشعر ، وهذه في علم الفلك تقابلها البروج السبعة .

ثم يتدرج المؤلف في الحديث عن الأمور الطبيعية فالإنسان جسم ونفس وروح . وأما طبائع البدن ففيها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . ويشبه الإنسان ونموه بالأعشاب والأشجار والبذور النامية ، والتي منها تتولد ، ثم بعد موتها تعود تستأنف النماء ، فيتجدد وجه الطبيعة في قيامة مباركة مشرقة ، مثلها مثل الأجنة في الأرحام ، حيث يتحول زرع المني إلى جنين ، وتنتهي المرحلة الأولى هذه إلى اشراقة ولادة الطفل وخروجه من ظلام الرحم إلى نور الحياة وبزوغ كائن جديد في العالم المنظور . وتتبع ذلك مراحل نمو بدن الانسان : من الطفولة إلى الشباب فالكهولة ثم الشيخوخة . وفي جميعها يعيش المرء مدة قصيرة ، هي العاجلة ، ثم يصير كبيراً في موته بالانطلاق إلى الآجلة والأبدية السعيدة .

وبدن الانسان - كما يقول المؤلف - هو وعاء لروحه ولنفسه معا .
أما النفس فانها امانة بالسوء ، فعليه ابدال الوهم والغيظ والكآبة فيها ، إلى حلم ورضى وسرور . وليلجأ إلى « موسيقى » اللحن تُشفي وتطرب الآذان ، وكذلك فان في مشاهدة المناظر الجميلة الخلافة ، وشمّ الروائح العطرة ، وتذوق المأكّل الشهية يحول العنف إلى المسالمة واللؤم إلى الجود وكرم الأخلاق .

وأجمل ما في تكوين الانسان روحانيته . فبالروح سموه وتحليته بالعفة والفضيلة والحياء ، وفيه أبهى علمه وحسن فهمه وقوة معرفته وذكائه وبالروح أيضاً صبره في الضيق ، وشجاعته أمام التحديات ، واقدامه وقت المحن ، وفيه التمييز بين الحق والباطل ، وتفنيده الرشد من الغي والصواب من الخطأ ، وادراك معنى الطاعة وضلالة العصيان . وبالروح يعلم الانسان ويتعلم ، ويحلم ، ويدبر ، ويعقل ، ويقوم بمصالح الأعمال ، وفيه يُستبدل بالغضب الرحمة ، وبالشهوة الأمل ، وبالكفر الايمان ، وبالحق المشورة والرأي السديد ، ويزكو بالتحكيم .

وفي مفهوم المؤلف لوظائف الأعضاء الرئيسة والأساسية في البدن ، فانه يعتبر أن **مسكن العقل هو في الدماغ** ، وفيه يكون مجتمع مراكز ، ومجتمع لربط الأعصاب في الرأس ، وفيها مركز أو مسكن للسمع في الأذنين ، والبصر في العينين ، ومسكن النطق واللذة في اللسان .

أما مسكن (أو مركز) الروح فهو القلب فلذلك لا يموت المرء - برأي عيسى الدمشقي- حتى يبلغ الألم منتهاه فيه ، لأنه روح الحياة والقلب حار والرئتان باردتان ، فيحصل التوازن . وفي الصدر تتم عملية التنفس بين شهيق وزفير ، وفي ذلك أيضاً يحصل التوازن ويكون الانشراح والفرح وراحة البال .

وكما في الطب الشعبي المتوارث ، فالمؤلف يؤكد أن **المعدة** هي بيت الداء ، وأكثر أسباب المرض فيها ، وفيها تستمر عملية الهضم أو بدء السقام ، في تكثير تناول الطعام والتهام الأغذية ، فالبطنة (الامتلاء المفرط في الأكل) ، وفساد الطعام والشراب فيها ، والتخليط في أنواع الأطعمة وألوانها ، فينصح بالاقبال منها قبل الشبع .

أما **الكبد** فيعتبر مسكن الرحمة ، وعكس ذلك العداوة والكراهية . والكبد هو مخزن الجسم بعد المعدة ، كما أنه الطابخ للأطعمة المنضج لها ، وما كان منها صافياً فيندفع الى **الطحال** مسكن الضحك ، ومنه الى **العروق** ، أما ما ليس منها فيبقى ليس صافياً ، فيُدفع الى **الأمعاء** ثم الى الخارج .

وأخيراً فان المرارة (وهي كيس الصفراء أو الحويصلة المرارية) فتعتبر مسكن الرشاد والهدى ، كما تساعد في اكمال عملية الهضم ، وهي باردة في حين أن الكليتين حارتان (٢٣) .

سلامة الصحة ودوام حفظها :

كما في الطب الشعبي ، يلزم الدمشقي بضرورة الوقاية من الأمراض ، وحسن الرعاية الصحية ، والعناية بالبيئة ، والاهتمام بجودة أنواع الأغذية لسلامة البدن ، واختيار الأفضل والأصلح منها ؛ ويوصي بتجويد الهضم .

ويقول بأن أفضل البذور منها للتغذية القمح الخالص الرزين الذي يُخبز بعد التخمر ، ويرى أن يكون معتدلاً مع اضافة قليل من الحليب، أما الفواكه فينصح بأن يُتناول منها ما هو متكامل النضج ، وأجودها التين والزبيب والليمونيات (كالبرتقال والليمون والكباد) فالرمان ؛ ومن البقول ينصح بالخنس (أو الخنص ، بتعبير المؤلف والناسخ) ، ثم الفجل ؛ وأما اللحوم فأجودها الجديان (لحم المعز في السنة الأولى) (٢٤) .

وفي الرسالة الهارونية يقسم المؤلف الطب الى قسمين : علم وصناعة (أي المهارة الطبية والحذاقة في الممارسة ، أو الحرفة وصناعة الحيل) .

وصناعة الطب تنقسم بدورها الى ثلاثة أقسام :

١ - حفظ الأصحاء على صحتهم ، واستردادها لما هي على حالتها الأولى إذا فُقدت ، ولا يتم ذلك الا في حفظ سلامة الأبدان بالوقاية من الأمراض والرعاية الدؤوبة ، ليكون البدن في أحسن حالة وأوفر عافية ، بما يصونه ويحصّنه ضد الأخلاط أو نقصهما ، والتزام الاعتدال في الطبائع وتوفر سبل الاستفادة منها أو الحصول عليها .

٢ - أما في حالة تأخر الصحة وتدنيها ، فالمؤلف ينصح بوجوب الاقدام على توفير العناية لحفظها ورعايتها بالاصلاح المستمر وتحسين أوضاعها ، بما يبقيها على حالة أفضل بما أوتي الطبيب من حكمة التدبير والمساعدة بالعلاج والدواء النافع والسعي لتقدمها أكثر فأكثر .

٣ - زيادة في بذل مساعدة فعلية بواسطة تدابير عملية نحو ذوي الأبدان الضعيفة والناقهين والأطفال الصغار والمشايخ المسنين حتى تتوفر لديهم أسباب الحماية والوقاية لضمان صحة جيدة في ظروف مُيسرة باستمرار (٢٥) .

وينصح أبو الحسن الدمشقي بتوفير الغذاء الجيد المتوازن لكل فرد، أولاً، وثانياً لو يُقدم العلاج الصحيح حين اللزوم ، وأخيراً اذا لم تُغنِ الأغذية والأدوية ، فحينئذ تكون المداخلة الجراحية (بعمل اليد) حتى ينال المريض الشفاء الناجز .

وتكون المعالجة باستعمال الأشياء المضادة ، أي في حالة إصابة العمى ، مثلاً يعطى المريض الأغذية والأدوية الباردة ، ويسقى الماء البارد ، أو الاستحمام أو التغطيس بالماء البارد ، وبالعكس ان كان المريض بارد المزاج فيعطى أغذية وأدوية حارة .

ويوصي المؤلف ، أيضاً ، بالاقتصاد في التدبير والتوفير في وسائله « فخير الأمور أوسطها » . وهذا يشمل خاصة الاهتمام بالتغذية الناجمة على أصول صحيحة مع التنويع والتوازن في ذلك ، والاحتراس من ادخال طعام على طعام ، وذلك بتناول ما يكفي من طعام أو شراب بمقدار دون زيادة أو اكثار منها ، وأيضاً ضمن أوقات محددة وحسب العادة المرعية .

وبتأثير اغريقي واضح ، فان المؤلف يعتبر أن علم الطب النظري يكون باشتماله على ثلاثة أمور :

أولاً : على الأمور الطبيعية وتصنيفها وتفرعاتها ؛

ثانياً : علم الأسباب والعلل مع تدليل ذلك وتعيين ظروفه ؛

ثالثاً : المعالجات بالأغذية والأدوية وأنواع العقاقير والعمل باليد (الجراحة) ، وأعمالها كالفصد والحجامة والمباشرات الجراحية (١٦).

ثم يؤكد المؤلف ضرورة معالجة عوارض النفس وعلل الأمراض العقلية ، وكذلك أسقام الجسم بنفس المستوى . فان العلل النفسانية تضعف الجسم كثيراً وتوهنه وتعكر صفو الذهن وجلاء الخاطر . ومن هذا المنطلق يوصي المؤلف بنفي كثرة السهر والهم والقلق ، ورفض الانقياد الى الأحزان والخوف مما يعرض المرء بسببها لمعاناة أمراض نفسية خطيرة ، بمقدار ما يتعرض البدن له من العلل سواء بسواء .

ومن خلال ممارساتهم ، وكذلك مؤلفاتهم الطبية ، أدرك أطباء العرب مآسي أمراض العقل وثقل وطأتها على النفوس ، وأمروا بالابتعاد عن التعب والارهاق الشديدين ، ورفض الأطماع الجشعة والسعي بشتى الوسائل للوصول للمراكز العالية والطموحات الغرّارة ، والعناء ليل نهار لنيل المآرب

من علوم وأهداف صعبة المنال بالغة الخطورة . كما حذّروا من إفراط بعض المرضى في العشق والغرام والانسياق الى الغيرة القاسية الهوجاء ، أو الاكثار من تناول الخمر والعقاقير المخدرة ، أو الانغماس في الملاهي التي لا تليق ، أو التعرض لكثرة الوسوس والكآبة والاصابة بداء السوداء والجنون الساكت ومن أمراض عقلية مستعصية .

هذه الأمور الهامة عالجها المؤلف بصراحة ، وفطنة وتقدير ، ليكون الانسان صحيح البنية سليم البدن جسداً ونفساً . وهذا ما يوجب ادخال تطوير جذري في الممارسة الطبية والرعاية الصحية والتمريض لتقوم خير قيام بحفظه وسلامته كوحدة متكاملة (٢٧) .

وقد خصص مؤلف الرسالة الهارونية، عدة أبواب دارت حول أهمية اعداد أدوية ناجعة من تحضيرات صيدلانية ، ومواد كيميائية ، ومركبات دوائية ، ووصفات مجربة من أشربة ومريبات ومعاجين وأدهان . نذكر على سبيل المثال : خلّ العنصل ، وربّ التوت ، وشراب العسل مع جوز البلاذر (من الفصيلة البطمية) ، والسكنجيين (من الفارسية ، وهو مركب دوائي نافع : ماء وخل وعسل بنسب معينة) وقد عرفه العرب منذ زمن المؤلف ، واستعملوه في أمراض كثيرة (٢٨) .

إن الرسالة الهارونية ، بمحتوياتها الجامعة وملاحظاتها المفيدة، أثبتت وجود قفزة نوعية تطبيقية وعلمية طبية هامة، ربطت ما قبلها بما بعدها من التطور ، وقد ساهم مؤلفها بترويج مفادها عبر القرون .

ونستطيع القول : ان أسرة الدمشقيّ قدمت مثالا حياً في تطوير المهنة والعلوم الطبيعية المساندة في التقدم العلمي في الحضارة العربية الاسلامية في فجر عصرها الذهبي .

سامي خلف حمارة

□ الخواشي :

- ١ - موفق الدين أحمد بن أبي أصيبعة : عيون الانبياء في طبقات الأطباء ، طبعة بولاق ، ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م ، ج ١ : ١٠٩-١٢٣ : وجمال الدين علي بن يوسف القفطي : تاريخ الحكماء ، مكتبة المثنى عن طبعة ليبزج ، ١٩٠٣ ، ١٦٠-٦١ ، وأحمد بن أبي يعقوب الكاتب العباسي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩١ م) ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ج ٢ : ٢٢٣ .
- ٢ - تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ : ٢٢١-٢٢٢ : وابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١١٦ .
- ٣ - القفطي ، تاريخ الحكماء ، ١٧٨-٩ ، ٤٠٤ : وابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١١٩ .
- ٤ - تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ : ٢٣٩-٤١ ، ٢٥٣ : وعلي بن الحسين المسعودي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، مروج الذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ج ٣ : ٣-٤ ، ٣٣-٣٥ : وأحمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق د. ا. عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٢ ، ج ١ : ٣٩-٤١ ، ٢٨٩ ، ٣٨٥-٩ ، ج ٤ : ٣٧-٤٤ .
- ٥ - ابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١١٩ : وتاريخ اليعقوبي ، ج ٢ : ٢٦٩-٧٠ : والمسعودي ، مروج ، ج ٣ : ١٠٩-١٨ ، ١٣١-٣٥ .
- ٦ - المرجع أعلاه ، ج ٣ : ١٩٢-٩٧ : وتقي الدين المقرئ (٧٦٥-٨٤٢ هـ / ١٣٦٤-١٤٤١ م) ، الخطط ، ج ٢ : ٤٠٥ : أمين خيالة ، فضل العرب في الطب (بالانكليزية) ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ٥٩-٦٤ : وسامي حماد ، « البيمارستانات وأصول التعليم الطبي فيها » : الفكر العربي ، عدد ٤٩ ، السنة الثامنة ، ١٩٨٧ ، ص ١٢١-٢٥ .
- ولقد اعتبر بعض المؤرخين أن ملجأ المرضى الذي بذه الوليد كان « بيمارستانا » (بمعنى دار للشفاء) ، ولكن مثل هذه التطورات لم تتم حتى زمن هارون الرشيد ، مؤسس أول بيمارستان في العاصمة العباسية ، كان الأول من نوعه ، حوالي عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م .
- ٧ - كمال السامرائي ، مختصر تاريخ الطب العربي ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩٨-٩٩ : والقفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٤٠٤ .
- ٨ - القفطي ، تاريخ الحكماء ، ١٧٨-٧٩ : ولويس شيخو ، علماء النصرانية في الاسلام ، تحقيق كميل حشيمة ، المكتبة البولسية ، ١٩٨٣ ، ص ٩١-٩٢ ، ١٥١-٥٢ ، ١٩١-٩٣ .
- ٩ - ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ : ٥١٧-٢٣ ، ج ٣ : ٨٣-٨٩ : وابن أبي أصيبعة . عيون ، ج ١ : ١١٩-٢٠ .
- ١٠ - ابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١١٩-٢١ .
- ١١ - أبو الفرج محمد بن النديم ، الفهرست ، بيروت ، طبعة دار المعرفة ، ١٩٧٨ ، ص ٤١٣ : وصاعد بن أحمد الطليطلي ، طبقات الأمم ، النجف ، الحيدرية ، ١٩٦٧ ، ص ٤٨ .
- 12— L. Leclerc, Histoire , vol. 1 : 83-6; Fuad Sezgin GAS, 3 (0791) : 227-8; and G. Graf, GCAL Vatican, 2:112.
- ١٣ - من المفارقات الطريفة المقابلة بين تسبب يزيد بن معاوية وعبدالصمد بن علي الهاشمي ، أنظر ابن خلكان ، وفيات ، ج ٣ : ١٩٥-٩٦ ، و ج ٤ : ٨٦-٨٨ ، في أثناء مواسم مناسك الحج الى مكة المكرمة والمدينة المنورة : تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ : ٢٢٢-٢٣ ، ٤٣٠-٣١ .
- ١٤ - لقد تسبب أول قاض للقضاة في الاسلام ، أبو يوسف يعقوب ، الى أمه ، ابن حَبَّته الأنصاري ، وهي بنت مالك من أهل الكوفة ، توفي أبوه وهو طفل ، فربته أمه أرملة ، ولكنه أبى الا أن يتبع الامام أبي حنيفة ، رضي الله عنه . فتعلم الفقه وكان عالماً حافظاً وكان مكرماً لدى الخلفاء من المهدي حتى الرشيد ، وكانت وفاته عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ابن خلكان ، وفيات ، ج ٦ : ٣٧٨-٩٠ : وابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١٢٠ .

١٥- سامي حمارة ، « الطبيب عيسى بن حكم المشقي » ، بلاد الشام في العصر العباسي ، عمان ، الجامعة الاردنية ، ١٩٩٢ ، ص ٥٤٥-٥٥٧ .

١٦- المسعودي ، مروج ، ج ٣ : ٣٨٣ ، ٤٧١ ؛ وابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١٢٧-٣٨ ؛ وغريغوريوس الملطي (ابو الفرج بن اهرن ابن العبري ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) ، تاريخ مختصر النول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٨ ، ص ١٢١-١٤٥ .

١٧- القفطي ، تاريخ الحكماء ، ٢٤٩-٥٠ ؛ وابن أبي أصيبعة ، عيون ، ج ١ : ١٢٠-٢١ .

١٨- مؤتمر بلاد الشام ، « عيسى بن حكم » ، ص ٥٤٣-٥٦٠ .

١٩- مؤتمر بلاد الشام ، « عيسى بن حكم » ، ص ٥٤٣-٤٧ ؛ والسامرائي ، مختصر ، ج ١ : ٢٩٨-٣٠٠ ؛ وجامعة اليرموك ، تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين ، حمارة ، ج ١ : ١٩٨٦ ، ١٢١-٢٢ .

٢٠- جامعة اليرموك ، تاريخ تراث ، حمارة ، ١٩٨٩-٩٣ . ٢٠٠-٢٠٢ ، ٢١٥-٢٠ ، ٢٤٨-٥٤ ، وايضا ٢٣٥-٤٦ .

٢١- مؤتمر بلاد الشام ، « عيسى بن حكم » ، ١٩٩٢ ، ص ٤٤٠-٤٤٥ ، ٥٥٠-٥٦٠ .

٢٢- مقبلة الرسالة الهارونية . وقد فحص الكاتب عدداً من النسخ الباقية حتى اليوم : مخطوطة الرياط بالمغرب ، والفاثيكلن ، وكمبردج بانكلترا (المملكة المتحدة) .

٢٣- للمقابلة أنظر: أبو الحسن علي بن سهل وتين الطبري ، فردوس الحكمة (اكمل هذه الموسوعة عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م) ، تحقيق محمد زبير الصديقي ، برلين ، ١٩٢٨ ، وطبع مع الاوردية ، ج ١ ، ١٩٨١ ، باكستان ، وفيها شرح للطبائع وفعل الفلك وتكوين الجنين والامزجة والأعضاء الرئيسة في البدن ، والفصول والعقل والنفس والهيولى والحواس والطعوم والقوى والانفعالات النفسية وحفظ الصحة والغذاء . . . وكان الدمشقي سباقا فيها .
وانظر كذلك : كتب المسائل في الطب للمتعلمين ، لأبي زيد حنين بن اسحق العبادي (١٩٤-٢٦٠ هـ / ٨٠٩-٨٧٣ م) ، طبع دار الجامعات المصرية ، تحقيق أبو الريشان محمد علي ومن معه ، ١٩٧٨ ، في عدة مواضع .

٢٤- للمقابلة أنظر : أبو بكر محمد بن ذكرى الرازي (ت ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) ، منافع الأغذية ودفع مضارها ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ ، ص ٥٦-٢ .

٢٥- المسائل ، للعبادي ، ص (٢٠-١) ، ٤٠ ، ٦٣-٧٥ .

٢٦- المسائل ، للعبادي ، ص ٨٤-٨٨ ؛ وتاريخ تراث ، جامعة اليرموك ، ١٩٨٦ ، ١ : ٥٢،٣٤٦ .

٢٧- كان الدمشقي سباقا بين رواد الأطباء العرب ، في التشديد على الاهتمام بالامراض العقلية والعواطف النفسية ، معطيا لها المقدار المساوي في معالجة الأبدان ، مؤكداً ذلك بدقة المحقق المؤمن برسائله الطبية في هذا المجال .
وأشار الى مفعول المسكرات في بدن المدمن لها ، واعتبرها تستحق المعالجة والرعاية لغير المرضى ، كما حذر من العقاقير المخدرة وتأثيرها المباشر في مستعملها .

٢٨- في هذه الفترة المبكرة من تطور العلوم الطبية عند العرب ، نجد الدمشقي يعطي اهتماماً اكيداً للمركبات الصيدلانية النافعة . أنظر شرح بعض المفردات الطبية في المراجع التالية :

رمزي مفتاح ، احياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية ، القاهرة ، الحلبي ، ١٩٥٣ :

وأحمد قندامة ، قاموس الغذاء والتداوي بالنبات ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٢ :

وجامع الفرضي في حفظ الصحة ودفع المرض ، تحقيق سامي حمارة ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٨٩ ، ص (٥٠-٦٥) .